مليزاند — أتشرب جرعة من الماء ؟

جولو — ليس بى ظمأ . شكرا لك

مليزاند — أتريد مصدغة أخرى ؟ . . . أرى على هذه نقطة صغيرة من الدم

جولو — كلا . لست فى حاجة الى مصدغة أخرى

مليزاند — أصدقنى القول ياجولو ، هل تتألم من جراحك كثيرا ؟

جولو — كلا . كلا . ليست هذه أول مرة تصيبنى فيها الجراح . . . خلفت من حديد ودم

مليزاند — أغمض عينيك وتملق النوم . سأقضى الليل كله بجوارك

جولو — جنبى نفسك التعب فلست فى حاجة إلى شىء . سأنام كالطفل الوديع . . . ماذا جرى ؟ مليزاند ! لماذا تبكين دفعة واحدة

مليزاند — (تستخرط فى البكاء) إنى . . . إنى مريضة

جولو — مريضة ؟ ! ماذا بك ؟

مليزاند — لاأدرى . . . الحياة هنا تغمز على المرض . . آثرت أن أقول لك ذلك اليوم . . . لست بسعيدة هنا

جولو — ماذا حدث ؟ ! هل أساء اليك أحد ؟

مليزاند — كلا . ليس هذا ما أعنيه . . .

جولو — إنك تخفين عنى شيئا فى أغوار نفسك . أنفضى إلى جملة حالك . من الذى يكدر عليك صفو حياتك ؟ أهو الملك ، أم أمى أم أخى بلياس ؟

مليزاند — لاأحد يكدر على صفو الحياة . إنك لا تستطيع إدراك نفسى . . . شىء أقوى منى . . .

جولو — لا تسلمى زمام نفسك إلى أوهام تبلبل بالك وتشقيك . ماذا تريدين أن أفعل ؟ ! هل عدت طفلة غرة تتلاعب بلبك أفكار الخيال ؟ ! هل زهدت فى زوجك ورغبت فى هجره ؟

مليزاند — آوه كلا . ليس هذا هو . . أتمنى أن أذهب معك . . . لا اريد أن أعيش هنا بعد اليوم . . . أشعر بأن عمرى قصير ولن أستمتع بالحياة طويلا !

جولو — ولكنى أريد أن أقف على علة ذلك . . . سيعتقد الناس إذا سمعوا قولك ، أنك فقدت رشدك ، أو أنك طفلة يغرر بها حلم ساذج . تكلمى أهو بلياس الذى . . . ؟ يقينى أنه لا يتحدث اليك كثيرا

(يتبع)

الأمل اليائس

« بقية المنشور على صفحة ٦ »

لها رفيقة فتاة من أهل الاقاليم ولدت فى اسرة شريفة ولكن مولدها لم يكن شرعيا ، وكانت هذه الفتاة مدموازيل لسبيناس ذكية بارعة الذكاء . حساسة قوية الحس ، مثقفة واسعة الثقافة ، وكانت المودة بينها وبين سيدتها قوية متينة ، دامت عشر سنين لم يكدر صفوها مكدر . ثم لاحظت صاحبة الدار ان زوارها أو فريقا منهم اذا انصرفوا عنها لم يخرجوا ، وانما أتموا سمرهم عند الفتاة ، فغاظها ذلك وكانت القطيعة بين الصديقتين ، ولكنها لم تكن قطيعة مألوفة إنما كانت حدثا من أحداث العصر فى باريس ، انقسم له الادباء والفلاسفة انقساما عظيما ، تعصب بعضهم للشيخة وتعصب بعضهم للفتاة ، وكانت كثرة الفلاسفة وعلى رأسهم دالمبير d'Alembert من أنصار الفتاة وكانت الارستقراطية المعتدلة والمحافظة من أنصار الشيخة .

ثم استأنفت الحياة المنظمة طريقها عند صاحبتنا ، واتخذت الفتاة لها ناديا أو صالونا أدبياً واشتدت المنافسة بين هاتين المرأتين . وصاحبتنا الآن فى الثامنة والستين من عمرها قد فقدت البصر منذ ثمان عشر عاما ، وعظمت مكانتها فى أوربا حتى لم يكن عظيم من الاوربيين يزور باريس الا رأى حقا عليه لنفسه ولمكانته أن يلقاها ويتحدث اليها . وفى اكتوبر من هذه السنة ١٧٦٥ زار باريس رجل من عظماء الانجليز هو هوراس ولبول Horace Walpole . كان أبوه روبير ولبول Robert Walpole وزيرا وكان هو عضوا فى البرلمان . فلما مات أبوه ترك السياسة ، وانصرف الى الادب والفن ، وكان فى الخمسين من عمره . ولم يمر هذا الرجل بدا من أن يزور صاحبتنا هذه ويغشى ناديها كما كان يغشى أندية الادب والسياسة كلها فى باريس . فلما رأى هذه الشيخة أنكرها ، وكتب الى صديق له يصفها بأنها عجوز عمياء فاجرة العقل . على أن وقتا قصيرا لم يمض على هذه الزيارة حتى تغير الامر بين هذا الانجليزى وهذه الفرنسية ، وتكررت الزيارة فوقع الانجليزى من نفس هذه المرأة موقعا غريبا رد اليها الشباب بل رد اليها الصبى فاحبته . وأنا أعنى بهذه الكلمة معناها . احبته وقد أشرفت على السبعين ولم يرفض هو هذا الحب . ومن المحقق انه لم يلق هذا الحب بمثله ، ولكنه أضمر لهذه المرأة مودة قوية صادقة لم تغيرها الايام واظهر بها اعجابا لاحد له . واتصلت أسباب المودة والحب بينهما ما أقام فى باريس ، فلما رجع الى لندرة اتصلت بينهما الكتابة ،

وكان يأتى الى باريس من حين الى حين ليرى حبيبته أو ليرى عاشقته ، أو ليرى يتيمته ، كما كانت تسمى نفسها ، فقد كانت تسمى نفسها يتيمة وتسميه هو وصيا . وكان هو يسميها ابنته الصغيرة . وكان الحنان بينهما كأقوى ما عرف الناس من الحنان بين المحبين . وكانت نتيجة هذا الحب أربع مجلدات نشرت بعد موتهما وفيها ثمانمائة من الرسائل التى اتصلت بينهما . وهى آيات من آيات الادب الفرنسى لا أكثر ولا أقل ، فيها تصوير لهذه العواطف النادرة ، الشاذة ، التى لم يألفها الناس والتى تملأ قلوبهم مع ذلك رحمة وبرا ، وإشفاقا ، وعطفا . وما رأيك فى هذه الضريرة التى نيفت على السبعين والتى تكتب لصاحبها رسائل حب وغرام كرسائل الفتيات اللاتى لم يتجاوزن العشرين . على أن صاحبها كان انجليزيا ، ومعنى ذلك أنه كان يخاف السخرية ، والمزاح ، وكانت الرقابة مضروبة على الرسائل فى انجلترا ذلك الوقت . فكان صاحبنا مروعا دائما يخشى أن تفض رسائل صاحبته ، وان يعرف مافيها من هذا الحب الغريب ، فيتندر الناس به فى القصر وفى الاندية . فكان يرد صاحبته الى القصد فى تصوير عواطفها الحارة ، وكانت هى تخاصمه فى ذلك ، وكان الامر يفسد بينهما أحيانا ، ولكنه لا يلبث أن يعود الى خير ما كان . وانقطعت رسائله عنها مرة فكتبت اليه : يظهر انك لا تريد أن تظهرنى من أمرك على شىء ، فاحذر أيها الوصى أن تصبر على ذلك فانى خليقة ان فعلت أن ارسل اليك سكرتيرى وان أكلفه الاسراع الى لندرة وآمره ان يلزمك وان يرسل الى بأنبائك ، وأن يعلن الى الناس جميعا وفى كل مكان أنى يتيمتك ، وانك وصيى ، وانى أحبك ، وان يهيأ لى عندك مكانا فالحق به ، وأعلن الى الناس جميعا ما بيننا ، لا أخاف فضيحة مهما تكن ، فاختر لنفسك بين الفضيحة والكتابة الى . ولعلها كانت فى بعض الوقت تذعن وتطيع ، وترد نفسها الى القصد ثم تثور فترسل نفسها على سجيتها وتطلق حبها صريحا حرا . وكذلك عاشت هذه المرأة خمسة عشر عاما ، استرد قلبها فيها شبابه كله وتبينت هى وتبين هو وتبين الناس فى عصرهما ، ومن بعدهما ان ما اندفعت فيه هذه المرأة من العبث واللهو ، ومن المجون والفساد ، ثم من الجد الخصب والنشاط المنتج ، كل ذلك لم يكن الا ضيقا بالحياة وافتقادا لهذا النور الذى يحببها الى النفس . وهو الحب ، ومصارعة لهذا العدو الفاتك وهو اليأس . فلما بلغت السبعين أو كادت تبلغها ظفرت بالحب عند هذا الانجليزى ، وظفرت به من غير طريقه كما كان يقول المعاصرون ، فان العيون هى أوضح طرق الحب الى النفوس ، ولكن الحب قد يسلك الى النفوس طريق الآذان كما قال شاعرنا القديم . وأكبر الظن أن صوت هذا الانجليزى هو الذى حمل الحب الى نفس هذه الفرنسية فثبته فيها تثبيتا .

وفى سنة ١٧٨٠ ماتت هذه المرأة وكتبت قبل موتها بقليل جدا الى صاحبها كتابا تنبؤه فيه بقرب آخرتها . وتنبؤه بانها لا تأسف لفراق الحياة ، لأنها لا ترى فى الحياة خيرا بعد أن كتب اليها أن لا تلقاه . وتنصح له بأن يستمتع بالحياة ما استطاع ، وتنبؤه بأنه سيحزن عليها ، فليس من اليسير أن يتعزى الناس عمن كان يؤثرهم بالحب . فلما أتمت املاء كتابها هم سكرتيرها الشيخ أن يقرأه عليها كعادته ، فلم يستطع لأنه كان يقطع قراءته بالبكاء . هنالك احست هذه المرأة المتشائمة اليائسة التى اسرفت فى سوء الظن بالناس ؛ احست أن هذا السكرتير لم يكن يعمل عندها ليعيش . فقالت له بصوت خافت فيه نغمة الموت ، وفيه مع ذلك نغمة الرضى والغبطة أكنت تحبنى اذا ؟

هذه صورة من صور هذه المرأة وهى من غير شك أشد هذه الصور اتصالا بالنفوس ، وتأثيرا فى القلوب . ولكن لهذه المرأة صورا أخرى عظيمة الخطر جدا فى حياة الأدب الفرنسى . فقد كانت ناقدة ، ولها فى أدباء فرنسا ، وفى كبار أدبائها خاصة آراء قيمة تثير الأعجاب لرقتها ولبراعة الصيغ التى كانت تعلن فيها . كانت تؤثر فولتير ، وكانت تضيق بروسو فانظر الى هذه الجملة البديعة التى تنقد فيها أسلوب جان جاك : « ان لروسو حظا من الوضوح ، ولكنه وضوح البرق ، وله حظ من الحرارة ولكنها حرارة الحمى » .

واتصلت هذه المرأة بأصحاب السياسة ، واتصلت بالعظماء والأشراف وكانت منهم ، وقد كتبت اليهم وتلقت منهم الكتب وقد صورتهم وصوروها ، فهذه ناحية أخرى من حياتها لها أثرها فى توضيح التاريخ السياسى والاجتماعى لفرنسا فى القرن الثامن عشر وقبل الثورة الفرنسية الكبرى .

وبعد فلعل أحسن ما كتب عن هذه المرأة الى الآن فصلان كتبهما سانت بوف فى أحاديث الاثنين تستطيع أن تقرأ أحدهما فى الجزء الأول ، وثانيهما فى الجزء الرابع عشر ، فان أردت الايجاز المقنع فاقرأ الفصل الذى نشر عنها فى « مجلة العالمين » أول أغسطس ، فان أبيت أن تتكلف القراءة أو تشق على نفسك بالبحث فقدر هذا الوصف الذى كان يصفها به فولتير ، وفكر فيه فانه يعطيك منها صورة قوية ، تملأ نفسك رحمة واعجابا . فقد كان فولتير يسميها : « الضريرة المبصرة » .

طه حسين